

مدخل لدراسة النظم الإسلامية

المقدمة :

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(١).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^(٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾^(٣).

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٢.

(٢) سورة النساء، الآية: ١.

(٣) سورة الأحزاب، الآيتان: ٧٠-٧١.

الدكتور:

مفرح بن

سليمان

القوسي*

* ليسانس شريعة
من جامعة الإمام
محمد بن سعود
الإسلامية - كلية
الشريعة بالرياض
عام ١٤٠٣هـ.

- ماجستير في
الثقافة
الإسلامية من
الجامعة نفسها
عام ١٤٠٩هـ.

- دكتوراه في
التخصص نفسه
والجامعة نفسها
عام ١٤٢٠هـ.

- له الكثير من
المؤلفات
المطبوعة.

- يعمل الآن عضو
هيئة التدريس
بجامعة الإمام
- قسم الثقافة
الإسلامية.

أما بعد :

فإن أصدق الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ .

إن النظام ضرورة تفرضها الحياة ذاتها، وطبيعة فطرية في الكائنات الحية، وقانون إلهي يسير مع الحياة جنباً إلى جنب، فإذا انفصل عنها فقدت توازنها واضطربت أحوالها .

وقد علمنا الخالق عز وجل - من خلال آياته الكونية - ضرورة النظام في الحياة، فقد أقام سبحانه هذا الكون على نظام بديع جعل فيه كل شيء بقدر: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾^(١)، وسَيَّرَهُ وفق نظام دقيق ثابت وسنن وقوانين مطردة، وأتقن سبحانه خلق هذا الكون وأودع فيه آيات متعددة وآلاء جمّة ومنافع لا تُحصى ﴿صَنَّ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾^(٢)، وخلق سبحانه الأرض وسخرها ليعيش الإنسان في آفاقها الرحبة، ويمشي في مناكبها ويأكل من خيراتها، كما خلق أنواعاً شتى من الكائنات الحية، وجعل لكل نوع منها نظامه الخاص الذي يتفق وتكوينه الخَلْقِي، وفَطَرَهَا على هذا النظام في بناء مساكنها، وجلب أقواتها، وطريقة تناسلها، وإطعام صغارها .. إلخ.

ولاطراد الجنس البشري والمحافظة عليه، وضمان أمنه واستقراره، لا بد له من نظام يحكمه، وقانون يسير على هديه، وينأى به عن التردّي في المهالك، أو الوقوع في أهواء النفس وحبائل الشيطان.

وقد تكفلت أحكام الإسلام وقوانينه بتنظيم الحياة الإنسانية في كل مناحيها؛ في العقيدة، والعبادة، والاجتماع، والأخلاق، والسياسة، والاقتصاد، والإدارة، والعلم والمعرفة...

(١) سورة القمر، الآية: ٤٩.

(٢) سورة النمل، الآية: ٨٨.

وهذه النظم الإسلامية - في مجموعها - ليست مجرد قوانين صارمة. على الإنسان أن ينفذها طوعاً أو كرهاً - كما هو الشأن في القوانين الوضعية البشرية - وإنما هي نظم إلهية سنّها الله عز وجل لتتلاءم مع فطرة الإنسان، فتُلبي حاجاته، وتشبع غرائزه، وتسمو بروحه، وتُتمّي عقله، وتحقق إنسانيته، وتجلب له المصالح، وتدرأ عنه المفسد، وتمكّنه من القيام بواجب الخلافة في الأرض، مما يؤدي في نهاية الأمر إلى تحقيق العبودية الخالصة لله عز وجل، التي هي الغاية من وجود الإنسان في هذا العالم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١).

وإذا كانت النظم البشرية الوضعية المتصارعة والمتناقضة قد أدت إلى ضياع الإنسان وترديه في مهاوي الهلاك، وإلى تعاقب المشكلات والأزمات، فإن الحل يكمن في تطبيق نظم الإسلام والالتزام بها في كل شأن من شؤون الحياة .

وهذا البحث الذي أقدمه بين يدي القارئ الكريم يُمثل مدخلاً مهماً لدراسة النظم الإسلامية، وقد ضمنته المباحث والمسائل التالية:

١ - تعريف النظم لغة واصطلاحاً .

٢ - علماء الاجتماع والنظم .

٣ - أنواع النظم الإسلامية .

٤ - الدراسات الإسلامية في النظم .

٥ - أهمية النظام في الكون والحياة .

٦ - حاجة البشرية إلى النظم .

٧ - من الذي يضع النظم ؟ .

٨ - غايات المجتمعات البشرية .

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦ .

٩ - أوجه القصور في تنظيم العقل البشري.

١٠ - آثار القصور البشري في مجال النظم.

١١ - كمال الوحي في تنظيم المجتمعات البشرية.

١٢ - فرية فصل الدين عن الحياة.

ثم تأتي الخاتمة، وفيها رصد لأبرز النتائج العلمية التي توصلت إليها، ثم قائمة المصادر والمراجع التي أفدت منها.

وقد اجتهدتُ في مراعاة قواعد البحث العلمي، من حيث: التزام الأمانة العلمية في النقل والاقتباس، وترقيم الآيات القرآنية وبيان سورها، وتخريج الأحاديث النبوية، وترجمة الأعلام، وكذا العناية بقواعد اللغة العربية، مجتنباً الإسهاب والإطالة وغموض العبارة.

وبعد: فقد بذلتُ في هذا البحث ما استطعتُ من جهد ، فإن وفقتُ فيه إلى الصواب، فذلك من فضل الله عز وجل وكرمه، وإن أخطأت أو قصرتُ، فأرجوه سبحانه أن يغفر لي، وحسبي أني نشدتُ فيه الإتيان ، وابتغيتُ الصواب والإحسان.

أسأل الله تعالى إخلاص النية وصلاح العمل، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

تعريف النظم :

أ - النظم لغة:

تطلق كلمة (نَظَم) في اللغة لتدل على التأليف وضم شيء إلى شيء آخر، يقال: نظم اللؤلؤ ينظمه نظاماً ونظاماً، ونَظَّمَه بمعنى: ألَّفَه وجمعه في سلك فانتظم وتَنَظَّمَ.

والنظام: جمعه نُظْم. وهو كل خيط يُنظم به لؤلؤ ونحوه، ويُطلق كذلك على السيرة والهدْي والمنهج والطريقة^(١).

فالكلمة - إذن - تُطلق على الشيء الذي يراعى فيه الترتيب والانسجام والارتباط، وهي بهذا تشبه العقد من حيث انتظام أحجاره بعضها مع بعض.

ب - النظم اصطلاحاً:

أما النظم في الاصطلاح فيراد بها: "مجموعة المبادئ والتشريعات والأعراف وغيرها من الأمور التي تقوم عليها حياة المجتمع، وحياة الدولة، وبها تنظم أمورها"^(٢). ويطلق النظام اصطلاحاً ويراد به معنى عاماً، فيكون "أحد مفاهيم العقل الأساسية، ويشمل الترتيب الزمني، والترتيب المكاني، والترتيب العددي، والسلاسل والعلل والقوانين، والغايات، والأجناس، والأنواع، والأحوال الاجتماعية والقيم الأخلاقية والجمالية"^(٣). وقد يطلق النظام ويراد به معنى خاصاً، فيقال مثلاً: نظام العمال، ونظام المحامين ونحوهما^(٤).

وأما النظم الإسلامية فيمكن تعريفها في الاصطلاح بأنها "المبادئ والأحكام التي شرعها الله لعباده على لسان رسوله ﷺ ليستقيم بها أمر الناس في معاشهم ومعادهم"^(٥).

- (١) انظر في هذا كلاً من: معجم مقاييس اللغة، ولسان العرب، والقاموس المحيط، مادة (نظم).
- (٢) د. محمد رأفت سعيد - المدخل لدراسة النظم الإسلامية - ط ١ - جدة: دار العلم للطباعة والنشر، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، ص ٥. وانظر: عز الدين الخطيب وآخرون. نظرات في الثقافة الإسلامية - ط ١ - عمان - الأردن: دار الفرقان، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، ص ١١٩.
- (٣) جميل صليبا - المعجم الفلسفي ج ٢ - ط ١ - بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٣م، ص ٤٧١.
- (٤) انظر: المرجع السابق ج ٢ / ص ٢٧٤.
- (٥) د. بكر زكي عوض - المدخل إلى دراسة النظم والثقافة الإسلامية - الإسكندرية: مطابع القدس، ص ١٠١.

علماء الاجتماع والنظم:

لقد كان لعلماء الاجتماع - على تعدد مدارسهم وتنوع أفكارهم - اهتمام واضح بدراسة النظم في المجتمعات البشرية، إلا أنهم حين يخوضون في تعريف النظم ونشأتها يقتصرون على النظم التي وضعها البشر دون الانتباه إلى ما جاء به الوحي، بل قد يدرج بعضهم الدين بوصفه نظاماً بشرياً وضعه المجتمع لنفسه، فمن ذلك - على سبيل المثال - ما قرره بعضهم قائلًا: "للنظم وجوه متعددة وهي لذلك يمكن أن تناقش من وجهات نظر متعددة، فبعض هذه النظم أصبح موضوع دراسة واسعة ومركزة.. الأمر الذي تبدو معه على أنها علوم منفصلة، ومثال ذلك أن النظم الاقتصادية أصبحت اليوم موضوع علم الاقتصاد، والنظم السياسية موضوع علم السياسة، وهناك نظم أخرى تتال - الآن - اهتماماً كبيراً، وتجرى بصددتها دراسات مستفيضة مثل: الأسرة والدين، ولكنهما لا يزالان من فروع علم الاجتماع والانثروبولوجيا"^(١).

فهذا النص يحدد مكان الدين لدى بعض علماء الاجتماع، حيث يصنفونه ضمن فروع علم الاجتماع والانثروبولوجيا، ولا شك أن هذا خطأ علمي كبير، ولأن وقع منهم في البيئات الغربية التي عرفت الديانات المحرفة فعزلتها أو فصلتها عن الحياة؛ فإنه لا يجوز تقليدهم في هذا في البيئات التي عرفت صفاء الوحي ونقاءه في الإسلام، بل يجب التأكيد على أن الإسلام يشتمل على النظم التي توجه المجتمع في كل شؤون، وليس نظاماً دينياً يؤثر خلقياً فحسب^(٢).

(١) د. محمد عاطف غيث - قاموس علم الاجتماع ص ٢٤٨، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب . وانظر: د. جلال مدبولي - الاجتماع الثقافي ص ٦٨-٦٩ - ط ١ - القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٧٩ م .

(٢) انظر: د. محمد رأفت سعيد - المدخل لدراسة النظم الإسلامية، ص ٧.

أنواع النظم الإسلامية:

يمكن القول إن الإسلام - وهو شريعة الله في الأرض ودينه الذي ارتضاه لعباده - قد تكفلت أحكامه وقوانينه بتنظيم الحياة الإنسانية على اختلاف أنماطها وتعدد مناحيها، والإسلام لا يقتصر على العبادات من صلاة وزكاة وصيام فرضها بصفة مخصوصة وفي أوقات معينة، بل يشتمل الإسلام إلى جانب ذلك على جوانب أخرى تتصل بالحياة الدنيا والحياة الآخرة، فهو دين ودنيا، عقيدة وشريعة، عبادة ومعاملة، سياسة ودولة، خلق وسلوك، وهو دستور قوي يجمع بين طياته نظاماً متعددة مترابطة متداخلة كترابط الإنسان وتداخله في كيان واحد.

ومن أبرز هذه النظم ما يلي:

١ - النظام العقدي:

وهو ما يُعنى بكل الأحكام والأمور الاعتقادية التي يجب على المسلم الإيمان بها، سواء ما يتعلق بذات الله سبحانه وتعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله والإقرار بوجوده، والإيمان بربوبيته، وبأنه خالق هذا الكون ومدبره، وإفراده بالألوهية والعبادة، أو ما يتعلق بالأنبياء والمرسلين وكتبهم ومعجزاتهم، أو ما يتعلق بالأمور السمعية الغيبية كالإيمان بالقدر واليوم الآخر والإيمان بالملائكة وعالم الجن.

٢ - نظام العبادة :

وهو ما يُعنى بالأحكام الشرعية الفقهية في مسائل العبادات؛ من حيث الحل والحرمة والوجوب والنذب والكرهية، كأحكام الصلاة والزكاة والصوم والحج، وغيرها من أنواع العبادات التي شرعها الله عز وجل لعباده.

٣ - النظام الاجتماعي:

وهو ما يُعنى بالنواحي الاجتماعية والعائلية والأسرية في المجتمع الإنساني،

وذلك فيما يتعلق بتحديد علاقات الأفراد بعضهم ببعض، وعلاقة الأفراد بالمجتمع، وواجب الفرد تجاه الجماعة وواجب الجماعة تجاه الفرد، وفيما يتعلق بالأحكام الخاصة بتكوين الأسرة، وأحكام الزواج وأركانه وشروطه وآدابه، وأحكام النفقة والطلاق وحضانة الأولاد، وما يتعلق بالحقوق والواجبات المتبادلة بين الزوجين، وحقوق الآباء والأبناء، والأحكام المتعلقة بالميراث والنسب وصلة الأرحام، وما إلى ذلك من أحكام.

٤ - النظام الخلقي:

وهو ما يُعنى بالأحكام المتعلقة بالفضائل والمكارم الخلقية، والأحكام التي تدعو إلى الخير والفضيلة وتتهى عن الشر والرذيلة، وتحدد قواعد السلوك الإنساني والطرق التي توصل الإنسان إلى المثل العليا، وكذلك الأحكام التي تحدد مصادر الإلزام الخلقي في الإسلام والمسؤولية الخلقية والجزاء عليها.

٥ - النظام المالي أو الاقتصادي:

وهو ما يُعنى بالنواحي المالية كأحكام البيع والشراء بأنواعهما والإجارة والرهن والكفالة، وأحكام النقود والمصارف، وأحكام الخراج والركاز وأحكام موارد الدولة الإسلامية ومصارفها.

٦ - النظام السياسي:

وهو ما يُعنى بأحكام نظام الحكم وقواعده في الدولة الإسلامية، وتولية الحاكم وما يتبع ذلك من أحكام البيعة والشورى، والعلاقة بين الحاكم والمحكوم وحقوق كل منهما وواجباته.

٧ - نظام العلاقات الدولية:

وهو ما يُعنى بالأحكام التي تتناول تنظيم علاقة الدولة الإسلامية بالدول

الأخرى في السلم والحرب، والتي تتناول قوانين معاملة الأجانب غير المسلمين "المستأمنين" في الدولة الإسلامية، وتنظيم علاقاتهم فيما بينهم أو مع رعايا الدولة الإسلامية.

وهذا التنوع في النظم الإسلامية لا يعني استقلال جانب عن غيره من جوانب الشريعة، بل جميع جوانبها مترابطة ومتداخلة؛ يؤثر بعضها في بعضها الآخر، ولا يمكن فصل أحدها عن الآخر، فلا يمكن فصل مسائل العقيدة عن غيرها من أحكام الشريعة، بل هي الأساس في جميع الأحكام، كما أن الشريعة تغطي بأحكامها جميع جوانب الحياة، ففي الوقت الذي يظهر فيه قصور القوانين الوضعية في عدم تناولها لمسائل العقيدة والعبادة والأخلاق؛ وهي المسائل التي تبني الإنسان وتجعله صالحاً ملتزماً يجازى على الخير والبر ويعاقب على الشر والإثم، فيسارع في الأول ويحجم عن الآخر، نجد النظم الإسلامية تربط بين العقيدة والعبادة والدين والمعاملة والأخلاق والسلوك، وتنمي الخير والفضيلة وتنتهي عن الشر والرذيلة، وترفض التجزئة في التعامل معها، وأخذ بعضها وإهمال البعض الآخر. ولذا لام الله جل وعلا أهل الكتاب حيث آمنوا ببيع بعض الكتاب وكفروا ببيع، حيث يقول سبحانه: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١).

الدراسات الإسلامية في النظم:

لقد عني الباحثون المسلمون بالنظم الإسلامية واهتموا كثيراً بدراساتها؛ وإن لم تكن هذه الدراسات تحت اسم النظم، فقد ناقشت كتب العقيدة وكتب السياسة

(١) سورة البقرة، الآية: ٨٥.

الشرعية قضية الإمامة^(١)، وعرضت كتب الفقه لمباحث عديدة من نظام الحكم والإدارة، مثل: أحكام الزكاة والركاز وأحكام الجهاد المتضمنة مسائل الحرب والذمة والأمان وكذا موارد بيت المال ومصارفه من غنime وفيء وخراج وجزية.

كما عرضت كتب الفقه لأحكام إقطاع الإمام للأراضي المملوكة للدولة، وإحياء الأفراد للأرض الموات والحمى، كما عرضت لأحكام القضاء والحسبة^(٢).

وهناك مؤلفات إسلامية كثيرة حملت عناوينها تخصصاً في أحد النظم الإسلامية، منها: ما هو في مجال النظام المالي والاقتصادي، مثل كتاب (الخراج) لأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم المتوفى سنة ١٩٢هـ، وكتاب (الخراج) أيضاً ليحيى بن آدم القرشي المتوفى سنة ٤٠٢هـ وكتاب (الأموال) لأبي عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٤٢٢هـ.

ومنها ما هو في مجال نظم الحرب والسياسة والعلاقات الدولية، مثل: كتاب (السَّيَر الكبير) لمحمد بن الحسن الشيباني المتوفى سنة ١٨٩هـ، وكتاب (الأحكام السلطانية) للقاضي أبي الحسن علي الماوردي المتوفى سنة ٤٥٠هـ وكتاب (الأحكام السلطانية) للقاضي أبي يعلى محمد بن الحسين الفراء المتوفى سنة ٤٥٨هـ، وكتاب

(١) وذلك من حيث: تعريفها، وحكمها، ومقاصدها، وطرق انعقادها، والشروط المطلوبة في الإمام عند اختياره، وواجبات الإمام وحقوقه، أمثال: كتاب (الفقه الأكبر) للإمام أبي حنيفة، و (الفقه الأكبر) للإمام الشافعي، و (شرح السنة) للبخاري، و (الشرعية) للأجري، و (منهاج السنة النبوية) لشيخ الإسلام ابن تيمية، و (شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة) للكاظمي، و (الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد) للبيهقي، و (المواقف) لعضد الدين الإيجي، و (العقائد النسفية) للنسفي، و (مآثر الانفاة في معالم الخلافة) للقلقشندي، و (الأحكام السلطانية) لأبي يعلى الفراء، و (السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية) لشيخ الإسلام ابن تيمية، وغيرها.

(٢) انظر: د. محمد فتحي عثمان - من أصول الفكر السياسي الإسلامي، ص ٣٣ - ط ١ - بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

(السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية) لشيخ الإسلام ابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨هـ، وكتاب (تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام) لبدر الدين عبدالله بن جماعة المتوفى سنة ٧٣٣هـ، وكتاب (أحكام أهل الذمة)، وكتاب (الطرق الحكمية في السياسة الشرعية) للإمام ابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١هـ.

ومنها ما هو في مجال نظم القضاء والجهاد والحسبة، مثل: كتاب (أدب القاضي)، و (أدب الوزير) للماوردي، وكتاب (نهاية الرتبة في طلب الحسبة) للشيزري المتوفى سنة ٥٨٩هـ، ورسالة (في الجهاد) لابن تيمية، وكتاب (الاستخراج في أحكام الخراج) لابن رجب المتوفى سنة ٧٩٥هـ.

وهناك مؤلفات أخرى تناولت بعض النظم الإسلامية أو جميعها من الناحية التاريخية، مثل: كتاب (فتوح البلدان) لأحمد بن يحيى البلاذري المتوفى سنة ٢٧٩هـ، وكتاب (أخبار الرسل والملوك) لمحمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ، وكتاب (الوزراء والكتّاب) للجهشياري المتوفى سنة ٣٣١هـ، وكتاب (تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء) لهلال الصابي المتوفى سنة ٤٤٨هـ، وكتاب (نصيحة الملوك) للغزالي المتوفى سنة ٥٠٥هـ، وكتاب (المقدمة) لعبدالرحمن بن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨هـ، وكتاب (تفريج الكرب في تدبير الحروب) لعمر بن إبراهيم الأوسي الأنصاري المتوفى نحو سنة ٨١٥هـ^(١).

وهذه الكثرة من المؤلفات وتنوعها تدل على خصوصية الفكر الإسلامي في مجال النظم واحتوائه لكل جديد يناسب العصر الذي يعيش فيه مصحوباً بانضباط مع قواعد الإسلام في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ^(٢).

(١) انظر: المرجع السابق، ص: ٣٢-٣٧.

(٢) انظر: د. محمد رأفت سعيد - المدخل لدراسة النظم الإسلامية، ص: ١١.

أهمية النظام في الكون والحياة:

يمثل النظام في الكون والحياة ضرورة لا يمكن أن تستقيم الحياة بدونها، وقد تكرر الكلام عن آفاق الكون ومشاهد الطبيعة في القرآن الكريم تكرراً يلفت النظر، ذلك أن أكثر سور القرآن تستعرض الكون بأفاقه الواسعة وأنواعه الكثيرة وأقسامه المتعددة وحركته الدائبة وحوادثه المتكررة، وأنه محكوم بنظام بالغ الدقة يجري وفق سنن مطردة، وأن حوادثه مرتبطة ببعض؛ مؤذن سابقها بلاحقها بانتظام واطراد دائمين مستمرين، يقول عز وجل: ﴿وَايَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (١)، وأن هناك تناسقاً بين نظام الحياة ونظام الكون غاية في الإبداع والإتقان، وأن كل شيء في الكون والحياة مقدر وموزون، يقول سبحانه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (٢)، فالنظام يحكم مسار الحياة وحركة الكون.

وكذلك فإن الإنسان وهو ذلك المخلوق المكرم الذي استخلفه الله جل وعلا في الأرض وسخر له الكثير من ملكوت السموات والأرض؛ ليحقق الرسالة التي كلفه الله بها وليسير نحو الغاية التي خلقه الله من أجلها؛ وهو عبادته سبحانه، فإن رسالة الإنسان تلك لا تتأتى، وغايته لا تتم إلا في ظل نظام يحدد مساره وينظم علاقته ويرتب أوضاعه ويعالج قضاياها، ويساير تطورات أحداثه، ويلبي مطالبه وحاجاته، وينظم جميع شؤونه، وإلا أصبح الإنسان أشد فوضى ووحشية من غيره من المخلوقات. ولقد استفاضت الآيات الكريمة التي تعرض لنا قصة آدم، ولعل في الآيات الآتية

(١) سورة يس، الآيات: ٣٧ - ٤٠.

(٢) سورة القمر، الآية: ٤٩.

ما يبين أهمية النظام بالنسبة للإنسان، وأنه لا يمكن أن يجد النظام الملائم لفطرته والمحقق لغايته إلا فيما أرشده الله إليه من صراطه المستقيم ومنهجه القويم المحقق لسعادة الدارين الدنيا والآخرة، قال جل وعلا: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى * فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَلًا تَجُوعُ فِيهَا وَلَا تَعْرِى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى * فَوَسَّسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَلْغَى * فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفَقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ رَقِّ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى * قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فِيمَا يَأْتِيكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (١).

ولعل السمة البارزة في عرض القرآن لموجودات الكون عرضاً متنوعاً ودعوة الإنسان بإلحاح إلى النظر والتأمل فيها والتفكير في مجرى حوادثها^(٢)؛ إنما يأتي ذلك منطلقاً وطريقاً إلى توحيد الله وإفراذه بالعبادة . يقول عز وجل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (٣).

ولئن جاءت آيات عديدة من كتاب الله تشرح نظام الكون وجميع سننه ونواميسه وأنه يسير وفق نظام دقيق؛ فإنها تتجاوز هذه الحقيقة، وتنتقل من بيان أهمية النظام للكون والحياة إلى التأكيد على أن هذه النظم وهذه السنن والنواميس

(١) سورة طه ، الآيات : ١١٦ - ١٢٤

(٢) انظر: محمد المبارك - نظام الإسلام العقيدة والعبادة - بيروت - لبنان : المكتبة الشعبية ، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م ، ص ٤٤ .

(٣) سورة فصلت ، الآية : ٣٧ .

مخلوقة ومقدرة، وأن الله سبحانه هو المسيطر عليها، وليس سبباً من جملة الأسباب ولا علة من العلل، فالأسباب والعلل والقوانين والنواميس كلها مخلوقة لله خاضعة له مقدرة من قبله، وأن انتظام الكون والحياة مرتبط بإرادة الله وقدرته، واستمرار هذا النظام منوط كذلك بمشيئته تعالى العليا، فالكون كله بمادته وسننه ملك له منقاد لمشيئته^(١)، يقول عز وجل: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٢)، ويقول: ﴿كُلُّ لُهُ قَانِتُونَ﴾^(٣).

حاجة البشرية إلى النظم:

من الظواهر المتكررة في تاريخ البشرية أن الإنسان يميل إلى الجماعة، ويندفع إلى التجمع بفطرته، ويلتف حول بني جنسه ليُكوّنوا مجتمعاً يلبي حاجاتهم، ويوفر لهم الضرورات، وفيه يتم التفاعل بين الفرد والجماعة على مختلف المستويات، وهذه الظاهرة يعبر عنها علماء الاجتماع بمقولة أرسطو: "الإنسان مدني بالطبع"^(٤)، وقد وردت الإشارة إلى هذه الظاهرة في القرآن الكريم في جملة من الآيات، منها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾^(٥)، منها قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ^(٦).

(١) انظر: المرجع السابق، ص ٥٢.

(٢) سورة الحديد، الآية: ٥.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١١٦.

(٤) أ. س. رايبورت - مبادئ الفلسفة: تعريب أحمد أمين - بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٦٩م، ص ٨٤.

(٥) سورة النساء، الآية: ١.

(٦) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

ويُدفع البشرية إلى التجمع دوافع عديدة، من أهمها ما يأتي:

أولاً: الدافع النفسي:

فالفرد يحتاج إلى أن يكون في جماعة، ليسكن إليها كما احتاج آدم إلى حواء ليسكن إليها، فالدافع النفسي إذن هو الدافع الأول إلى الاجتماع البشري. ذلك أن الإنسان كائن اجتماعي يأنس بفطرته إلى الجماعة، ويحب أن يعيش فيها، ويشعر في قرارة نفسه بأنه لا يستطيع أن يعيش في عزلة عن غيره ينقطع فيها عن الناس، فالعزلة قاتلة له، والوحدة وأد لطبيعته، وإذا عاش مدة قصيرة بعيداً عن الناس منقطعاً عن الاتصال بهم؛ أحس بالوحشة واشتدت مخاوفه وتبرم من الحياة نفسها كأن الموت يطارده، ومن أجل هذا كانت عقوبة السجن للمذنب هي الحرمان من الجماعة الذي يشعر معه السجين بالألم النفسي^(١).

ويضاف إلى هذا أن في طبيعة خلق الإنسان ضرورة اجتماعية، ذلك أن الخالق سبحانه وهب الإنسان القدرة على الكلام، وهذه الخاصية وحدها من أقوى الدلائل على حاجته إلى من يتكلم معه، لأن اللسان أداة التفاهم، وبه يكون التعبير عما يجيش في النفس من أفكار وخواطر ومشاعر؛ فمع من يتفاهم إذا كان يعيش وحده ؟ ، ولن يُعبّر إذا كان في عزلة ١١٩.

ثانياً: الدافع المادي:

ويُراد به أن الله عز وجل خلق الإنسان وركّبه على صورة لا تصلح حياته ولا تبقى إلا بالاتصال بالآخرين، لأنه منذ ولادته يكون عاجزاً عن الوفاء بضرورات حياته ومطالبها الكثيرة، وليس شأنه كشأن المخلوقات الأخرى التي يكفيها الإلهام الغريزي لانتظامها وتحقيق مطالبها والقيام بوظائفها والحصول على سُبُل عيشها كالنحل والنمل مثلاً.

(١) انظر: د. محمد رأفت سعيد - المدخل لدراسة النظم الإسلامية، ص ١٩.

"فالإنسان يولد ولا قدرة له على الحركة، وهو في حاجة ماسة إلى غذاء جسمه وتعهّد نظافته وتفقد أحواله للمحافظة على سلامته، والعمل على راحته. ويستمر هذا مدة طويلة من الزمن تمتد عدة سنين حتى يستطيع أن يخدم نفسه. وإذا شب عن الطوق وقوي ساعده لازمه العجز عن الوفاء بمطالبه، فلا يستطيع وحده أن يزرع ويحصد، وأن يغزل وينسج ويحيك ثيابه ليلبس، وأن يصنع طعاماً يقوته ومسكناً يؤويه، وعليه فهو مضطر إلى الاتصال بالآخرين من بني جنسه للحصول على مطالبه الرئيسية هذه. وكلما تطورت حياته اتسعت مطالبه وتشعبت حاجاته؛ فلا يقف في تعاونه مع غيره عند أهله وعشيرته فقط كما كان حاله في عصره الأول، بل زادت دائرة هذا التعاون وعاش في مجتمع أكبر يبذل فيه كل فرد ما عنده من قدرات للجماعة، وتبذل الجماعة لكل فرد فيها ما لديها من ثمار كدحها ونتاج أيديها وعقولها"^(١).

ولعل فيما أورده ابن خلدون في مقدمته عن ضرورة الاجتماع البشري ما يوضح هذا الدافع، حيث يقول: "إن الله سبحانه خلق الإنسان وركبه على صورة لا تصح حياتها وبقاؤها إلا بالغذاء، وهدهاء إلى التماسه وبما رُكِبَ فيه من القدرة على تحصيله، إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء، غير موفية له بمادة حياته منه، ولو فرضنا منه أقل ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من الحنطة - مثلاً - فلا يحصل إلا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ، وكل واحد من هذه الأعمال الثلاثة يحتاج إلى مواعين وآلات لا تتم إلا بصناعات متعددة؛

(١) الشيخ مناع بن خليل القطان - الحاجة إلى الرسل في هداية البشرية ص ٢٤ بتصرف يسير، وهي محاضرة أُلقيت على طلاب الدراسات العليا بكلية الشريعة بالرياض في العام الجامعي ١٤٠٣/١٤٠٤هـ.

من حداد ونجار وفاخوري، وهب أنه يأكله حياً من غير علاج، فهو - أيضاً - يحتاج في تحصيله حياً إلى أعمال أخرى أكثر من هذه؛ من الزراعة والحصاد والدراس الذي يُخرجُ الحب من غلاف السنبل، ويحتاج كل واحد من هذه إلى آلات متعددة وصنائع كثيرة ... ويستحيل أن تفي بذلك كله أو ببعضه قدرة الواحد، فلا بد من اجتماع القدر الكثير من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم^(١).

ثالثاً: الدافع الأمني:

ويراد به أن الإنسان بحاجة ماسة للعيش بين بني جنسه؛ ليتحقق له الأمن على نفسه، حيث يستعين بأبناء جنسه في الدفاع عن نفسه من عادية غيره من المخلوقات الأخرى المفترسة من السباع والطيور ونحوها.

وفي هذا يقول ابن خلدون عن بني الإنسان: "وكذلك يحتاج كل واحد منهم - أيضاً - في الدفاع عن نفسه إلى الاستعانة بأبناء جنسه؛ لأن الله سبحانه لما ركب الطباع في الحيوانات كلها وقَسَمَ القدر بينها، جعل حظوظ كثير من الحيوانات العجم من القدرة أكمل من حظ الإنسان، فقدرة الفرس - مثلاً - أعظم بكثير من قدرة الإنسان، وكذا قدرة الحمار والثور وقدرة الأسد والفيل أضعاف من قدرته، ولما كان العدوان طبيعياً في الحيوان جعل لكل واحد منها عضواً يختص بمدافعة ما يصل إليه من عادية غيره، وجعل للإنسان عوضاً من ذلك كله الفكر واليد، فاليد مهياة للصنائع بخدمة الفكر، والصنائع تُحصِّلُ له الآلات التي تنوب له عن الجوارح المُعدة في سائر الحيوانات للدفاع، مثل الرماح التي تنوب عن القرون الناطحة، والسيوف النائية عن المخالب الجارحة،... فالواحد من البشر لا تقاوم قدرته قدرة واحد من الحيوانات العجم سيما المفترسة، فهو عاجز عن مدافعتها وحده بالجملة،

(١) مقدمة ابن خلدون ج ١ - ط ٣ - بيروت : دار الكتاب اللبناني ، ١٩٦٧م، ص ٦٩-٧٠ .

ولا تفي قدرته أيضاً باستعمال الآلات المعدة للمدافعة لكثرتها ... فلا بد في ذلك كله من التعاون عليه بأبناء جنسه" (١).

ويقرر ابن خلدون - بعد أن ساق الدوافع إلى الاجتماع البشري - أن "الاجتماع ضروري للنوع الإنساني وإلا لم يكمل وجودهم وما أَرَادَهُ الله من اعتماد العالم بهم واستخلافه إياهم" (٢).

وإذا ثبت لنا يقيناً أن الاجتماع البشري ضروري، فإن البشر بلا شك بحاجة ماسة إلى النظم، ذلك؛ لأن العلاقة بين أفراد الجماعات البشرية تضرب في اتجاهات متعددة، فالفرد يريد أن يُشبع حاجات كثيرة لا يتم إشباعها إلا عن طريق الآخرين، فيريد - مثلاً - أن يأكل وأن يشرب وأن يعمل وينتج، وأن يتزوج وينسل، وأن يأمن على نفسه ودينه وماله وعرضه، فكيف يحقق كل هذا؟.

كما أن في الإنسان غرائز شتى كحب النفس وحب السيطرة وحب التملك، وهذه الغرائز تصطرع فيها القوى البشرية، ويسعى كل إنسان في المجتمع البشري إلى أن يكون حظه أوفر من غيره، وأن يستأثر بالمنفعة واللذة، وأن يكون له القهر والغلبة، وقد ينشأ عن ذلك التخاصم والتشاجر في حياة الأفراد في المجتمع الواحد.

كما أن هذا المجتمع لا بد أن يدخل في علاقات كثيرة ومتعددة - سياسية واقتصادية وغيرها - مع غيره من المجتمعات الأخرى، وقد ينتج عن تلك العلاقات الاختلافات فيما بينها ثم العداء والمقاتلة، وقد يشتد التنافس في هذا المضمار، فتضيع الحقوق وتُهدر الحرمات وتكون السيطرة للأشد والأقوى .. ولا يقف الصراع

(١) المرجع السابق، ص ٧٠-٧١.

(٢) المرجع السابق، ص ٧١.

البشري عند حد، بل يتتابع ويستمر في حياة المجتمعات البشرية إلى ما لا نهاية. فما العلاج لكل ذلك؟.

إن العلاج الناجع يكمن في وجود موازين للحق ثابتة، وقواعد واضحة، ونظم محكمة تحدد للفرد ما له وما عليه في مجتمعه الذي يعيش فيه، وتنظم علاقات المجتمعات بعضها مع بعض، فتُحسم الخلافات وتُحفظ الحقوق وتُصان الحرمات، سواء على مستوى الأفراد أو على مستوى الجماعات.

وهذه النظم تختلف من ناحية سعتها وتعقدتها من جيل إلى آخر، فلا شك أن الأجيال الأولى كانت في حاجة إلى نظم، ولكنها نظم قليلة متواضعة تسد حاجاتها التي لم تتعقد بعد، وتتناسب مع حياتها البسيطة التي لم تشتبك فيها العلاقات والمصالح الكثيرة، ولذا فإنه كلما نمت الجماعات البشرية احتاجت إلى المزيد من النظم^(١).

من الذي يضع النظم ؟:

إذا ثبت لنا يقيناً ضرورة وجود نظم تحدد للأفراد والمجتمعات ما لها وما عليها في شؤون حياتها، فمن الذي يضع النظم للمجتمعات البشرية ؟.

هناك طريقتان لوضع النظم هما :

١ - طريق الوحي الإلهي .

٢ - طريق العقل البشري .

ولقد عرفت المجتمعات البشرية هذين الطريقين منذ القدم، فقد أنزل الله عز وجل وحيه على رسله في كل الأمم يحمل للناس ما يُنظم شؤون حياتهم، ويحدد حقوق كل فرد وواجباته، وكذلك ما يجب للجماعات وما يجب عليها (وهذا هو

(١) انظر: د. محمد رأفت سعيد - المدخل لدراسة النظم الإسلامية، ص: ٢٢.

الطريق الأول)، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾^(١).

وعلى الرغم من وجود هذا الوحي في جميع الأمم السابقة، فإن كثيراً من الناس أعرضوا عنه وأخذوا يسنون القوانين والتشريعات لأنفسهم (وهذا هو الطريق الثاني).

ولعل أول سؤال يتبادر إلى الذهن في هذا المقام هو: أي هذين الطريقين أنفع وأفضل للمجتمعات البشرية ؟.

وللإجابة على هذا السؤال لا بد أن نتناول هذين الطريقين بالبحث والدراسة للتعرف إلى طبيعة كل منهما.

ولكن نتعرف قبل ذلك إلى الغايات التي تهدف إليها المجتمعات البشرية، ليكون بحثنا للطريقين على أساس درجة تحقيق كل طريق منهما لهذه الغايات^(٢).

غايات المجتمعات البشرية:

إن الغايات التي يتفق عليها الجميع هي: أن يكون كل فرد في المجتمع متمتعاً بكل حقوقه؛ فنفسه محفوظة، ورأيه مكفول الحماية، وعرضه مصون، وماله في أمن، قد وجد حاجاته الضرورية، ووجد حاجاته التحسينية (التكميلية)، وشعر بالأمن والاستقرار، وأمن من جور الآخرين عليه. هذه غايات يطمح إليها كل مجتمع ينشد الحياة الطيبة.

بالإضافة إلى الغايات الرئيسة التي ينبغي للمجتمعات البشرية أن تحرص عليها، وهي: أن تجد دينها محفوظاً للقيام بالعبودية الكاملة لخالقها ورازقها

(١) سورة فاطر، الآية: ٢٤.

(٢) انظر: د. محمد رأفت سعيد - المدخل لدراسة النظم الإسلامية، ص ٢٣-٢٤.

ومسخر الكون لها: لتفوز بجنته وتتجو من عذابه يوم لقائه. وهنا تكمل الغايات التي تجمع الخير والسعادة في الدنيا والآخرة، فأَي الطريقين يحقق للمجتمعات هذه الغايات؟ (١).

إن طريق العقل البشري المجرد عن هداية الوحي لا يستطيع أن يحقق هذه الغايات، ويتضح لنا ذلك فيما يلي:

أوجه القصور في تنظيم العقل البشري^(٢):

إن المجتمعات البشرية إذا أسندت مهمة تنظيمها إلى جماعة من أولي الرأي فيها، وحاول هؤلاء أن يضعوا لمجتمعاتهم نظاماً بعيداً عن هداية الوحي الإلهي، فإن هذه النظم لن تحقق لمجتمعاتهم الغايات المرجوة، وذلك لوجود العديد من أوجه النقص والقصور التي يُعاب بها تنظيم العقل البشري، والتي يتمثل أبرزها في الآتي:

١ - القصور الزمني.

٢ - القصور المكاني.

٣ - الميل إلى طرف من الأطراف.

٤ - الجهل بحقيقة الإنسان.

أولاً: القصور الزمني:

ويراد به أن الإنسان المشرع أو الواضع للنظم مهما نضج عقله وكمل وعيه وتفكيره، وأوتي من الحكمة وسداد الرأي الشيء الكثير، وبلغ من قوة العقل منتهاها، فإنه على كل حال يبقى محدوداً بحدود زمنية، فلو عَلم حاضره الذي يعيش فيه، وعَلم شيئاً من الماضي بالدراسة والقراءة والاطلاع، فإنه لا يمكن أن يدَّعي علماً

(١) انظر: المرجع السابق، ص ٢٤.

(٢) راجع في هذا المرجع السابق ص ٢٤-٣١.

بالمستقبل؛ لأن المستقبل غيب، والغيب لا يعلمه إلا الله وحده، يقول عز وجل: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُعْثُونَ﴾^(١). ويقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(٢). ولذا لو صلح - جدلاً - نظام الإنسان المشرع فسيكون ذلك الصلاح في حدود مدة زمنية محدودة، ثم يأتي الغد بما لم يحسب له حساباً، ومن أجل هذا يتغير هذا النظام، وقد يُغيّر المشرع نفسه، وقد يقوم بذلك غيره من المشرعين، وهذا التغيير قد يكون تغييراً شاملاً.

وأي نظام يكون على هذه الدرجة من التغيير السريع، فإنه لا يحقق للمجتمع ما يصبو إليه من استقرار وأمن وطمأنينة، بل يبقى في قلب مستمر. ومن هنا نجد النظم البشرية دائمة التغير ولا تعرف الاستقرار، ومثل هذا القصور يجعل هذا الطريق غير مأمون على المجتمعات البشرية^(٣).

ثانياً: القصور المكاني:

ويراد به أن عقل الإنسان الواضع للنظم مهما بلغ من صفات الكمال البشري، فإنه يبقى محدوداً بالمكان الذي يعيش فيه، فهذا الإنسان قد يعلم المكان الذي يعيش فيه، وقد يعرف ما يرتبط بهذا المكان من ظروف ومطالب وحاجات ... الخ، ولكنه قط لا يمكن أن يدّعي الإحاطة بالأمكن كلها والبيئات كلها. ولذا إن صلح نظامه

(١) سورة النمل، الآية: ٦٥.

(٢) سورة لقمان، الآية: ٣٤.

(٣) ولا سيما أن القانون أو الدستور من شأنه أن يكون دائماً وثابتاً ولا يمكن أن تمتد إليه أيدي التبدل أو التعريف، فإذا لم يتوافر فيه ذلك، أصبح قاصراً وعاجزاً عن القيام بوظيفته التي وضع من أجلها.

لبيئته - افتراضاً - فإنه لن يحقق مثل هذا الصلاح للبيئات الأخرى، لأن لكل بيئة طبيعتها وظروفها الخاصة بها، ولو اعتمدنا على العقل البشري في وضع القوانين والنظم، فإن ذلك يقتضي أن يكون لكل بيئة نظامها الذي يمكن أن يتصادم أو يختلف مع نظم البيئات الأخرى.

وعلى ذلك لن نتحقق الوحدة في النظم التي يمكن عن طريقها أن تحيا المجتمعات البشرية في سلام ووثام، خاصة وأن هذه المجتمعات تتحد في أصولها وفطرتها وغاياتها على الرغم من اختلاف الألوان والألسن، واختلاف الشعوب والقبائل.

ثالثاً: الميل إلى طرف من الأطراف:

ويقصد به افتقار المشرع البشري إلى الموضوعية والتوازن والعدالة عند تنظيمه للمجتمع، فلقد تبين باستقراء الفكر البشري قديمه وحديثه: أن الإنسان عموماً يجنح في تفكيره إلى جهة من الجهات وإلى طرف من الأطراف، وذلك؛ لأنه يفكر بالأسلوب الذي نشأ وتربى عليه، فمن ربي على نزعة مادية تطرف وصار إليها، ومن ربي على نزعة خيالية في فكره جنح إليها، ومن المفكرين من يميل مع الجماعة على حساب الفرد، ومنهم من يميل مع الفرد على حساب الجماعة، ومنهم من يميل إلى جانب قومه وعشيرته^(١). ولما كان هذا الميل في التفكير من عادة البشر، كان النظام الذي يأتي من قبلهم لا يحقق التوازن والعدالة في المجتمعات

(١) وقد يقول قائل: إن الذين يسنون القوانين والنظم يكونون عادة أناساً مؤتمنين وموثوقاً بهم. ونقول له: مهما بلغ المشرع البشري الكمال من صفات الأمانة والنزاهة والعفة والاستقامة، فإنه سيبقى على كل حال بشراً، والبشر من طباعهم التي خلقوا عليها أنهم يخطئون ويصيبون، كما أنه من الثابت أن الإنسان يؤثر ويتأثر بمن حوله إيجاباً أو سلباً، فلا بد أن ينحاز عند سن القوانين إلى جانب عشيرته وقومه، أو إلى البيئة التي نشأ فيها، أو إلى النزعة التي تربى عليها، ولذا فإنه لا يؤمن من الانحراف أو الزلل.

البشرية. ونضرب على ذلك مثلاً: وهو ما حصل مع أفلاطون^(١) الذي فكّر كثيراً من أجل وضع نظم لمجتمعه، فتخيّل مجتمعاً كبيراً أطلق عليه اسم (الجمهورية) أو (المدينة الفاضلة)، ثم رسم معالته ووضع قوانينه ونظمه لكي يتحقق فيه الخير والصالح.

وهذا في حد ذاته مطلب سليم، فمن من الناس من لا يُحب تحقيق الخير والصالح لمجتمعه؟، ولكن كيف يتوصل أفلاطون في نظامه الذي وضعه إلى هذا الخير والصالح؟.

لقد جاء بضروب من الأفكار المدمرة والآراء الغريبة التي زعم أنها تؤدي إلى تحقيق مصلحة مجموع الأمة؛ منطلقاً في ذلك من فروض عجيبة لا تستقيم بحال مع طبيعة الإنسان وفطرته.

من ذلك مثلاً:

١ - أنه يرى أنه يجب على الدولة أن تُمكن الأفراد من الوصول إلى سعادتهم وذلك بأن تشجع الخير وتهدم الشر، والسبيل الأمثل - في نظره - لتشجيع الخير والحث عليه هو قيام الدولة بفصل الأولاد الأسوياء الأصحاء عن آبائهم منذ ولادتهم، وأن تجعل انتسابهم إلى الدولة لا إلى آبائهم، وأن تشرف على تربيتهم ورعايتهم حتى ينشأوا دون أن يعرف الواحد منهم أباه ويخرجوا إلى الحياة العامة وليس لهم ولاء إلا للدولة.

والسبيل الأمثل - في نظره - لحصر الشر ومنع تسريه وامتداده هو إعدام

(١) فيلسوف إغريقي يوناني. ولد حوالي سنة ٤٢٧ قبل الميلاد بأثينا في اليونان، ومات فيها سنة ٣٤٧ قبل الميلاد. انظر: الموسوعة العربية الميسرة، ج ١ - بيروت - لبنان: دار نضهة لبنان، ١٩٨١م، ص ١٨١.

الأولاد الذين يولدون لآباء أشرار حتى يُقضى على الشر في مهده^(١) .

- ٢ - أنه يريد لمدينته الفاضلة هذه أن تكون قوية وشامخة، ولكن سبيله إلى هذه القوة هو إعدام الضعفاء والمرضى من الأولاد لئلا ينتج عنهم مستقبلاً جيل ضعيف .
- ٣ - أنه يرى أن وجود أي منفعة شخصية لفرد من أفراد الأمة يهدم منفعة المجموع، ولذا يجب أن تنهار المصالح الفردية ويُقضى عليها، بحيث لا يكون لأي فرد من الأمة منفعة شخصية تتميز عن منفعة مجموعها (الشيوعية في الأملاك والأموال)^(٢) .
- وأفلاطون نموذج من النماذج البشرية التي حاولت أن تنظم لمجتمعها بجهدا العقلي المجرد بعيداً عن هداية الوحي، فكان هذا التطرف الذي لا يحسن الجمع بين المادية والروحية أو بين الفردية والجماعية أو بين الواقع والخيال .

رابعاً: الجهل بحقيقة الإنسان:

فلقد بذل العلماء الذين يُعتد بقولهم في مجال دراسة الإنسان جهوداً كبيرة قديماً وحديثاً من أجل معرفة حقيقة الإنسان والكشف عن خفايا نفسه وأسرارها، ومع ذلك فإنهم لم يستطيعوا إلا معرفة جوانب معينة فقط من نفسه، ولم يعرفوا الإنسان ككل .

فهذا - مثلاً - ألكسيس كاريل - وهو عالم مختص بهذا المجال - يقول في كتابه الذي سماه (الإنسان ذلك المجهول): "لقد بذل الجنس البشري مجهوداً جباراً، لكي يعرف نفسه، ولكن بالرغم من أننا نملك كنزاً من الملاحظة التي كدسها العلماء

(١) وأفلاطون ينطلق في هذا الرأي الغريب من فكرة (توارث الشر)، فكأنه يرى حتمية امتداد الشر من الآباء إلى الأبناء. وكان من الممكن أن ينجو الفكر البشري من هذه الأفكار الخاطئة لو اهتدى بنور الوحي .

(٢) انظر: عمر عودة الخطيب - المسألة الاجتماعية بين الإسلام والنظم البشرية - ط ٢ - بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٩٧٩م ، ص ٤٦ .

والفلاسفة والشعراء وكبار العلماء الروحانيين في جميع الأزمان، فإننا استطعنا أن نفهم جوانب معينة فقط من أنفسنا، إننا لا نفهم الإنسان ككل .. إننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة، وحتى هذه الأجزاء ابتدعتها وسائلنا، فكل واحد منا مكون من موكب من الأشباح تسير في وسطها حقيقة مجهولة ... وواقع الأمر أن جهلنا مطبق، فأغلب الأسئلة التي يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشري تظل بلا جواب؛ لأن هناك مناطق غير محدودة في دنيانا الباطنية ما زالت غير معروفة، فنحن لا نعرف حتى الآن الإجابة على أسئلة كثيرة".

ويذكر نماذج من هذه الأسئلة ليقرر بعدها: أنها "ستظل جميعاً بلا جواب، فمن الواضح أن جميع ما حققه العلماء من تقدم فيما يتعلق بدراسة الإنسان ما زال غير كاف، وأن معرفتنا بأنفسنا ما زالت بدائية في الغالب"^(١).

وكان من نتائج هذا الجهل بحقيقة الإنسان أن اختلفت النظرة إليه وتعددت التيارات والمذاهب التي تخبط فيه خبط عشواء، فبين مؤلهة له^(٢)، وبين واضعة له في دائرة الحيوان والمادة^(٣)، وذاق هذا الإنسان بسبب هذه التوجهات المتضاربة فيه

(١) الإنسان ذلك المجهول ؛ تعريب: شفيق أسعد فريد - ط ٢ - ٠٠ بيروت : مؤسسة المعارف، ١٩٨٠م، ص ١٧-١٩ .

(٢) ومن ذلك على سبيل المثال: ما حصل في بعض الديانات اليونانية والهندية القديمة، وما حصل في المسيحية المحرفة حيث ألّه النصارى المسيح عيسى عليه السلام وعبدوه، وكذا ما حصل من بعض متطرفي الفرق.

(٣) ومن ذلك على سبيل المثال: ما حصل في المجتمعات التي استرقّت الإنسان وجعلته من سقط المتاع يباع ويشترى كالمجتمع الروماني القديم. وما تدعيه نظرية (داروين) في (النشوء والارتقاء) من أن الإنسان كان قرداً في الأصل ثم تطور في خلقه عبر توالي العصور والقرون حتى وصل إلى ما هو عليه الآن راجع في هذا : كتاب الأخلاق - لأحمد أمين - ط ٢ - ٠٠ بيروت - لبنان : دار الكتاب العربي ، ١٩٢٥م ، ص ١٠٩ .

صنوفاً من المزار حتى أصبح في أزمة معاصرة شعر بها كثير من الباحثين، وصرحوا بهذا الشعور في كتاباتهم^(١).

وما دام أن الإنسان الذي هو محل النظم لا يزال مجهولاً لنفسه، فإنه بطبيعة الحال لا يستطيع أن يضع نظاماً محكمة، ولا يُتوقع منه أن يكون مصيباً فيما يصل إليه من تلك النظم دون هداية الوحي المنزل من خالقه.

آثار القصور البشري في مجال النظم^(٢):

نظراً لوجود القصور في تنظيم العقل البشري بعيداً عن هداية الوحي، فإنه لا بد أن يكون لأي تنظيم بشري آثار سيئة على الفرد والمجتمع، ولكي تتضح لنا هذه الآثار نُقدم ثلاثة نماذج لنظم بشرية كانت سائدة في ثلاثة مجتمعات مختلفة:

الأول: المجتمع الروماني الذي كان له قانون بشري قوي ومنظم بلغ أوج عظمته في الصياغة في القرن الخامس الميلادي في عهد (جوستيان)^(٣)، ولكنه قسم الشعب إلى طائفتين:

- إحداهما: طائفة قليلة غالبية ثرية سماها (الأشراف).

- والأخرى: طائفة مغلوبة فقيرة، وهي الأكثرية سماها (الضعفاء).

ثم حمى الأشراف وفرض لهم حقوقاً ليست للضعفاء، حيث قرر ما يلي:

١ - أن بعض الرعايا ممن ليسوا روماناً بالسلالة ليست لهم حقوق الرومان، بل هم

(١) ومن هؤلاء الباحثين: "تشارلز فريكل" في كتابه (أزمة الإنسان الحديث)، و"كارل باسبرز" في كتابه مستقبل الإنسانية، و أدريتن كوخ" في كتابه أزمة العصر.

(٢) راجع في هذا: المدخل لدراسة النظم الإسلامية ص ٢٩-٣١.

(٣) إمبراطور بيزنطي يدعى (يوستيان الأول). ولد عام ٤٨٣م، أعظم ما أنجزه تشييد كنيسة أيا صوفيا، وجمع القانون الروماني الذي كان له تأثير بالغ في جميع ما تلاه من تطورات قانونية. توفي عام ٥٦٥م، انظر: الموسوعة العربية الميسرة ج ٢، ص ١٩٩١م.

كالعبيد يعملون لأجل الرومان ولتشبع بطونهم، وحرّموا من كل الحقوق التي يفرضها القانون الروماني للسلالة الرومانية.

٢ - أن العبيد الضعفاء لا يعاملون معاملة الأدميين، بل معاملة الأشياء التي سُلبت الإرادة في كل شيء، وليس على السيد مسؤولية فيما يفعل مع عبده، فلو ضربه أو قتله فلا تبعة عليه.

٣ - أن المرأة ليست ذات شخصية مستقلة وليس لها كيان مستقل، بل هي وما تملك في حكم المملوكة للرجل، ولذا سُمي بعض الكتاب الاجتماعيين عقد الزواج في هذا النظام بعقد الرق، فالمرأة تنتقل من رق الأب إلى رق الزوج، وللزوج الحقوق كلها على زوجته، وعلى الزوجة الواجبات كلها تجاه زوجها.

٤ - أن للأب السلطان المطلق على بنيه، فليست لهم حرية إلا ما يمنحها لهم أبوهم، فالابن لو بلغ أربعين سنة ليس له سلطان على نفسه، بل ولايته الكاملة بيد أبيه يعطيها إياه متى شاء.

٥ - أن للدائن حق استرقاق المدين إن عجز عن الأداء.

٦ - أن نظام الإرث في هذا القانون يتجه إلى تجميع الثروة في يد قريب واحد ويُحرّم منها الباقيون.

فهذا التنظيم البشري يمثل هذه القوانين لا يعطي كل ذي حق حقه، بل إنه يسلب حقوق الضعفاء ليزدادوا ضعفاءً، ويعطيها الأقوياء ليزدادوا قوة على قوتهم، ويقوي نظام الطبقات ويفرق ما بين المجتمعات^(١).

(١) انظر: محمد أبو زهرة - تنظيم الإسلام للمجتمع - القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٧٥ م.
ومحمد الدسوقي وأمينه الجابر - مقدمة في دراسة الفقه الإسلامي - ط ١ - الدوحة:
دار الثقافة، ١٤١١ هـ / ١٩٩٠ م، ص ٤٨ - ٥٠.

الثاني: المجتمع الفارسي الذي اشتد فيه التفرق الاجتماعي واشتدت معه الأحقاد والعداوة بين الطبقات، وكثرت فيه الشرور وفسدت الأخلاق منذ أن فتح الإسكندر المقدوني أرض فارس، فقام أحد فلاسفته ومفكره ويدعى (ماني)^(١) لعلاج هذه المشكلة، فنادى بنظام يدعو إلى التشاؤم المطلق المتمثل في فناء بني الإنسان ليتخلص المجتمع من شرورهم، حيث:

١ - دعا إلى تحريم الزواج ليتسارع العالم إلى الفناء.

٢ - كما دعا إلى الخلاص من مصدر الشر في العالم، ولا يتم ذلك - في نظره - إلا بإبادة بني الإنسان.

وإذا كان (ماني) قد حاول معالجة العداوة والمباغضة المستمرة بين الناس في مجتمعه بالإفناء، فقد جاء بعده مفكر آخر يُدعى (مزدوك)^(٢) حاول معالجة تلك المشكلة بالإبقاء، ولكن على شر حال من الانحلال، حيث إنه رأى أن سبب تلك المشكلة هو انفراد بعض الطبقات بحيازة الأموال والتزوج بأجمل النساء أو امتلاكهن بملك اليمين. لذا دعا إلى شيوعية الأموال والنساء وإباحتهما، حتى صار الناس لا يملكون شيئاً من الأموال، وصار الرجل منهم لا يعرف ولده ولا المولود يعرف أباه،

(١) مصلح فارسي. ظهر في القرن الثالث الميلادي. ادعى النبوة عام ٢٤٢ م. له مذهب مشهور يُسمى بـ (المانوية). اتسم بتعاليم (الزرادشتية)، وتأثر فيه بـ (البوذية) و (الفنوصية) تأثراً كبيراً. انظر: الموسوعة العربية الميسرة ج٢/ص ١٦٣٦.

(٢) ولد في نيسابور سنة ٤٨٧ م. كان مانوياً ولكنه انشق على ماني، يقول بثلاثة أصول للعالم بدلاً من أصلين هي الماء والنار والأرض، وإليه تُنسب المزدكية بإيران. قُتل سنة ٥٢٣ م. انظر: د. عبد المنعم الحفني - المعجم الفلسفي - ط ١ - القاهرة: الدار الشرقية، ١٤١٠ هـ/ ١٩٩٠ م، ص ٣١٨.

فانهار المجتمع الفارسي بهذا المذهب الفوضوي واشتدت فيه الأزمت والمشكلات^(١).

الثالث: المجتمع العربي قبل الإسلام، الذي لم يكن أسعد حالاً من سابقه، حيث:

١ - لم يكن ثمة نظام جامع، ولا وحدة تضم شتات القبائل، ولا قانون يحكم الروابط

بينها، وإن كانت كل قبيلة تدين بالطاعة لكبير منها يفصل في النزاع بين أفرادها.

٢ - كانت العلاقات بين الناس يسودها الظلم والجهل والتفكك والثرات القبلية ..

يصور ذلك زهير بن أبي سلمى في قوله:

وَمَنْ لَمْ يَذُدْ عَنْ حَوْضِهِ بِسَاحِهِ يُهْدَمُ وَمَنْ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ يُظْلَمُ^(٢)

وكانت عصبية الجاهلية تسيطر على الشاعر، يقول الشاعر:

وَهَلْ أَنَا إِلَّا مِنْ غَزِيَّةٍ إِنْ غَوَتْ غَوَيْتُ وَإِنْ تَرَشَّدَ غَزِيَّةٌ أُرْشِدُ^(٣)

ويقول آخر:

لَا يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ حِينَ يَنْدَبُهُمُ لِلنَّائِبَاتِ عَلَى مَا قَالَ بَرَهَانَا

كما كانت الحروب تقع لأتفه الأسباب^(٤)، ويفنى فيها عدد كبير من الناس^(٥).

٣ - لم تكن المرأة ذات شأن في الكيان العربي إلا في بعض كبار القبائل إذا كانت

(١) انظر: محمد أبو زهرة - تنظيم الإسلام للمجتمع ص ٩-١٠، ود. محمد عبد الستار نصار -

دراسات في فلسفة الأخلاق ٠٠ ط ١ - الكويت: دار القلم، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، ص ٢٩٢-٢٩٣.

(٢) فتح الكبير المتعال إعراب العلقات العشر الطوال (معلقة زهير بن أبي سلمى)؛ شرح، محمد

علي الدرة، البيت (٥٤) ٠٠ ط ١ - حمص: دار الإرشاد، ١٩٨٦م، ص ٧.

(٣) البيت لدريد بن الصمة من قصيدة رثى بها أخاه عبدالله لما قتله عبس. ابن منظور: مختار

الأغاني ج ٥ ٠٠ ط ١ - بيروت: المكتب الإسلامي، ١٣٨٣هـ / ١٩٦٤م، ص ١٠٧ - ١١١.

وانظر: السيد أحمد الهاشمي - جواهر الأدب في أبيات وإنشاء لغة العرب، ج ٢ ٠٠ بيروت:

مؤسسة المعارف، ص ٨.

(٤) كحرب داحس والغبراء.

(٥) كما كان الشأن بين قبيلتي عبس وذبيان.

المرأة تنتمي إلى بيت رفيع^(١). ولم تكن ذات حظ في الميراث، فقد كان الميراث للذكور: لأنهم الذين تكون بهم النصره.

٤ - أن النسب كما كان يثبت بالنكاح يثبت كذلك بالسفاح، فيمكن أن يكون للرجل عدة أولاد من علاقات مختلفة، فبعضهم من زواج صحيح، وبعضهم من سفاح، والجميع ينتمي إليه.

٥ - وكذلك يثبت النسب بالإلحاق، فكان التبني سائداً عند العرب، فمن حق الرجل أن يلحق بنسبه من يشاء، ومن يُلحقه بنسبه يكون ابناً له، له من الحقوق ما لكل الأبناء لا فرق بينه وبين أي واحد من أبنائه من نكاح أو غيره^(٢).

وبعد: فهذه بعض النماذج لمجتمعات سبّرتها أفكار بشرية، فلم تجن منها المجتمعات إلا الفوضى والقلق والاضطراب، وهي كافية للقطع بأن النظم التي تأتي عن طريق البشر بعيداً عن هداية الوحي لا تحقق الغايات الطيبة للمجتمعات البشرية. وهذا الحكم ينطبق على المجتمعات البشرية كلها قديمها وحديثها، فالمجتمع المعاصر بما فيه من مذاهب فكرية متصارعة ونظم متباينة إنما تعود بجذورها إلى الثقافات القديمة. ويضيق المقام هنا عن ذكر ما قيل عن النظم الفردية وكذا النظم الشيوعية من أقوال مشتهرة ترصد سوءات هذين النظامين، وتبين النتيجة التي وصلت إليها المجتمعات المعاصرة.

وينبغي ألا يفهم مما تقدم أننا نزدري العقل البشري ولا نقدره قدره، فنحن نؤمن بأن للعقل منزلة عظيمة، فهو هبة الله العظمى ومنحته للإنسان، به أكرمه

(١) كما كان الشأن في بعض نساء قريش كهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان، وكأم المؤمنين خديجة بنت خويلد زوج النبي ﷺ.

(٢) انظر: محمد أبو زهرة - تنظيم الإسلام للمجتمع ص ١٢-١٤ .

وفضله على كثير من مخلوقاته، وقد نَوَّه الإسلام به في آيات عديدة في كتاب الله، وكرَّمه أيما تكريم، حيث جعله مناط التكليف عند الإنسان، وشرع له من الأحكام ما يكفل حمايته والمحافظة عليه - باعتباره أحد الضروريات الخمس التي أنزلت الشرائع للمحافظة عليها^(١) - فحرَّم كل ما يُضعفه أو يُزيله، وحث على إعماله بالنظر والتدبر والتفكير في آيات الله تعالى المقروءة والمنظورة في الأنفس والكون والآفاق^(٢)، وخط الإسلام له المنهج الصحيح للعمل والتفكير، ورفع من أمامه العوائق والموانع التي تعطله عن وظيفته كاتباع الظن والأوهام والخرافة أو الخضوع لسيطرة العادات والتقاليد أو تقليد الآباء...^(٣).

ولكن على الرغم من كل ذلك، وعلى الرغم من أن للعقل طرائقه المنطقية الصحيحة في كثير من قضايا الحياة وميادين الفكر، وله مجالات واسعة يمكن أن يبدع في مضمارها، فإنه محدود بمحدودية الإنسان نفسه، وغير قادر على تشريع نظام شامل يكفل سعادة الإنسان ويحقق غاياته العليا في الوجود والحياة إلا إذا أُعمل في ضوء الوحي وبهديه.

وهذا ما صرح به علماء الغرب أنفسهم، حيث يقول - على سبيل المثال - (جاك مارتينان): "إن أي مجتمع بشري يحتاج إلى مجموعة من القيم ذات المصدر

(١) وهي: الدين، والنفس، والعرض، والعقل، والمال.

(٢) والآيات في هذا كثيرة جداً، منها على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد : ٢٤) ، وقوله: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (الغاشية : ١٧-٢٠) ، وقوله: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (الأنعام : ١١) .

(٣) انظر: د. مفرح القوسي - المنهج السلفي - ط١ - ٠٠ الرياض : دار الفضيلة ، ١٤٢٢هـ، ص ٢٣٢.

الإلهي الذي يعلو على الإنسان. أي إن مصدر القيم لا يجوز أن يرجع إلى الإنسان نفسه وإلا سيكون طرفاً وقاضياً في الوقت نفسه، إذن لا بد لكي يحتفظ المجتمع البشري باستقراره وخضوعه للسلطة السياسية من وجود حقائق مطلقة يُسَلَّم بها الأفراد جميعاً^(١).

ويقول عالم القانون الشهير (جورد هوايت كروس باتون): "إن السبيل الوحيد للوصول إلى معايير متفق عليها هو الاعتراف بالوحي السماوي قانوناً"^(٢).

كمال الوحي في تنظيم المجتمعات البشرية:

تبين لنا فيما سبق بعض أوجه القصور التي تحجب العقل البشري عند وضع نظام شامل للحياة لا يعتريه نقص أو قصور. وإذا كانت هذه الحقيقة ثابتة في تاريخ البشرية في مختلف عصورها وأزمانها، فإن شريعة الإسلام المستمدة من الوحي الإلهي كاملة لا يعترينا نقص، وشاملة لا يلحقها قصور؛ لأنها من عند الله سبحانه. ويتضح لنا ذلك جلياً عند استعراضنا للخصائص التي تتميز بها الشريعة الإسلامية، والتي من أبرزها ما يلي:

١ - خاصية الإحاطة والشمول:

"ذلك أنه ما من عمل يعمل به الإنسان أو قول يقوله إلا وقد اتخذت منه الشريعة الإسلامية موقفاً بعينه تأمر به أو تنهى عنه أو تندب إليه أو تكرهه أو تجعله من المباحات .. ومن هنا كانت الأخلاق والعادات والأعمال صغيرها وكبيرها

(١) أنور الجندي - مفاهيم العلوم الاجتماعية والنفس والأخلاق في ضوء الإسلام - ط ١ -

القاهرة: دار الاعتصام، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م، ص ٢٩.

(٢) وحيد الدين خان - وجوب تطبيق الشريعة الإسلامية - الرياض: إدارة الثقافة والنشر

بجامعة الإمام، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م، ص ٣٠٥.

مما تُعنى به الشريعة الإسلامية أشد عناية، حتى تلك الأمور التي يهتدي إليها الإنسان بفطرته كالأكل والشرب والنوم واللباس، تضع الشريعة لها نظاماً، وتحدد لها حدوداً وترسم لها أبعاداً^(١).

وما من علاقة تسود المجتمع بين أفراده، أو المجتمع المسلم مع المجتمعات الأخرى إلا وضعت لها الشريعة نظاماً وحددت لها آداباً.

وما من قضية تتصل بنظام الاجتماع الإنساني من سياسة أو اقتصاد أو إدارة إلا وبينت الشريعة الإسلامية فيها الرأي الصائب والموقف السديد^(٢).

وانطلاقاً من هذه الخاصية قسم العلماء أحكام الشريعة إلى ثلاث مجموعات: الأولى: أحكام تتناول العقيدة من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وما يتعلق بهذا من مسائل الإيمان. ويختص بدراستها علم التوحيد أو العقيدة.

(١) ومن ذلك على سبيل المثال:

أ - فيما يخص الأكل والشرب: تحريم أكل الميتة ولحم الخنزير والسباع والجوارح من الطير، وتحريم شرب الخمر أو تناول كل ما من شأنه إزالة العقل أو إضعافه، والحرص على المطعم والمشرب الحلال، وضرورة الأكل والشرب باليمين، والأكل مما يلي الأكل، واجتناب التنفس في الإناء، وكذا اجتناب الإفراط في الأكل والشرب، وتسمية الله قبل البدء بالأكل والشرب وحمد الله بعد الفراغ منهما.

ب - فيما يخص اللباس: تحريم تشبه الرجال بالنساء وتشبه النساء بالرجال في اللبس، وتحريم لبس الرجال الحرير والذهب، وتحريم الإسبال للرجال، ووجوب التزام النساء بالحجاب الشرعي الساتر، وتحريم الإسراف في اللباس.

ج - فيما يخص النوم: استحباب النوم على الشق الأيمن، والمداومة على الأذكار التي تقال قبل النوم وبعد الاستيقاظ منه مما ورد عن النبي ﷺ في ذلك.

(٢) د. علي عبدالحليم محمود - الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام - الرياض: إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م، ص ٦٦.

الثانية : أحكام تتناول الأخلاق كوجوب الصدق والأمانة والوفاء بالعهد، وحرمة الكذب والخيانة ونقض العهد، وما يتعلق بهذا من مسائل وتفريعات، ويختص بدراستها علم الأخلاق.

الثالثة : أحكام تتناول النواحي العملية من حياة الإنسان، ويختص بدراستها علم الفقه. وهذه الأحكام العملية على ثلاثة أقسام:

القسم الأول : أحكام العبادات، كالصلاة والزكاة والصوم والحج ...

القسم الثاني : أحكام المعاملات، كالبيع بأنواعه، والإجارة، والرهن، والكفالة، والمساقاة والمزارعة، والجعالة، والنكاح، والطلاق، والنفقة، والإرث ، والوصية ...

القسم الثالث : أحكام العقوبات، وهي الأحكام الخاصة بالعقوبات التي أوجب عز وجل إيقاعها على مرتكبي موجباتها، كعقوبة القتل العمد، والإفساد في الأرض، والسرقه والزنا، وشرب الخمر، والقذف ...^(١).

٢ - خاصية التكامل والترابط:

ونعني بهذه الخاصية أن الشريعة الإسلامية نظام تشريعي متكامل لا ينقصه شيء ، ولم يفته شيء ، ولم يُزد فيه شيء عن حاجة الناس .. وهي نظام تشريعي مترابط متداخل كترابط الإنسان وتداخله في كيان واحد ، ولا يقبل التجزئة، فلا يمكن أن يؤخذ ببعضه ويترك بعضه؛ لأنه كلُّ متكامل لا يمكن الاستغناء عن شيء منه بحالٍ، ولا يستطيع نظام آخر من أنظمة البشر أن يحل محله

(١) وللاستزادة في هذا راجع كتاب (المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية) للدكتور عبد الكريم زيدان - ط ١١١ - بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤١١هـ / ١٩٩١م ، ص ٥٣-٥٢ .

أو محل بعضه أو يشاركه في علاج مشكلات الناس وتحقيق مصالحهم والوفاء بحاجاتهم ومطالبهم^(١).

ولذا أنكر الله عز وجل على الذين يلتزمون ببعض أحكام الشريعة دون بعض، وتوعدهم بالخزي في الدنيا وأشد العذاب في الآخرة، حيث يقول سبحانه: ﴿أَفْتَرُمُونِ بَعْضَ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(٢).

٣ - خاصية الواقعية وسهولة التطبيق:

ومعنى ذلك أن الشريعة الإسلامية نظام تشريعي لا يعيش في فراغ ولا يعمى في الخيالات والأوهام، وإنما يتسم بالواقعية ومراعاة إمكانات الناس وقدراتهم، كما يتسم بالسهولة واليسر عند تطبيقه، يقول تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾^(٣) ويقول كذلك: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾^(٤)، ويقول أيضاً: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا﴾^(٥).

ومن الأمثلة على هذا: تشريع الرخص عند وجود مشقة في تطبيق الأحكام أو تحقيقاً لرعاية المصلحة ودرء المفسدة، كإباحة النطق بكلمة الكفر عند الإكراه عليها حفظاً للنفس، وإباحة أكل الميتة ولحم الخنزير وشرب الخمر عند الضرورة، وإباحة الفطر في نهار رمضان للمريض والمسافر، وإباحة التيمم لمن خاف الضرر من

(١) انظر: د. علي عبدالحليم محمود - الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، ص ٦٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٨٥.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

(٥) سورة النساء، الآية: ٢٨.

استعمال الماء، وإباحة القصر والجمع في الصلاة للمسافر، والرخصة للمريض بأن يصلي كيف استطاع، ونحو ذلك^(١).

ومن يسر الشريعة: التدرج في التشريع والتمهيد له، وتخفيف بعض الأحكام بالنسخ ونحوه^(٢).

ولكن هذا النظام التشريعي الواقعي الميسر "يحتاج دائماً إلى سلطة سياسية تنفذه وتشرف على تطبيقه، وهذه السلطة السياسية هي الدولة بكل مواصفاتها"^(٣).

٤ - خاصية العدل والمساواة:

فالله عز وجل أنزل شريعته لإقامة العدل بين الناس ورفع الظلم عنهم، فلا مجال فيها لأدنى ميل أو انحراف عن ميزان العدل، وقد حَرَّمَ سبحانه الظلم على نفسه لكماله وغناه وحكمته، وحَرَّمه بين الناس، كما جاء في الحديث القدسي الشريف: "يا عبادي إني حَرَّمْتُ الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا"^(٤)، وأمر سبحانه بالعدل وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾^(٥)، بل أمر سبحانه به حتى مع الخصوم والأعداء، حيث يقول سبحانه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً﴾^(٦)، ويقول: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا

(١) انظر: د. عبد الكريم زيدان - المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، ص ٤١.

(٢) انظر: محمد يوسف موسى - الإسلام وحاجة الإنسانية إليه - ط ٤ - ٠٠ الكويت : مكتبة الفلاح، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، ص ١٩٣.

(٣) د. علي عبدالحليم محمود - الغزو الفكري ص ٦٧.

(٤) رواه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب (البر)، باب (تحريم الظلم)، ج ١٦ / ص ١٣١-١٣٢.

(٥) سورة النساء، الآية: ٥٨.

(٦) سورة النساء، الآية: ١٠٥.

هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴿١﴾، ويقول أيضاً: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾ ﴿٢﴾ .

وتطبق المساواة في الشريعة الإسلامية بالصفة الصحيحة، فلا امتياز لأحد في ظل الشريعة الإسلامية، فالله سبحانه هو الذي شرعها، وهو المالك الخالق لجميع المخلوقات، والناس كلهم عبيده، وهم سواء أمام شرعه^(٢) .

ومن التطبيقات العملية لقيام الشريعة على المساواة والعدل: أنه لما سرقت المخزومية أَرَادَ النَّبِيُّ ﷺ إقامة حد السرقة عليها، فتحرّكت فيها الشفاعة لشرف قبيلتها ومنزلتها، وكان ممن شفع لها عند رسول الله أسامة بن زيد (حب رسول الله وابن حبه)، فقال له (منكراً عليه فعله): "أتشفع في حد من حدود الله، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها"^(٤) .

ومن التطبيقات العملية أيضاً: أن "الإسلام أذن لنا في مجال المعاملات أن نتعامل مع أهل الكتاب وأن يتعاملوا معنا - في حدود الحلال - وأذن لنا بأكل ذبائحهم، وكفل للزوجة الكتابية في حال زواجها من مسلم ما كفله للزوجة المسلمة، وعندما نهى عن الإرث إذا اختلف الدين كان ذلك قائماً على العدل أيضاً، فكما تُحرّم الزوجة الكتابية من إرث زوجها يُحرّم الزوج المسلم من إرث زوجته، مع أن الضرر عليه أكبر.

(١) سورة المائدة، الآية: ٨.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٢.

(٣) انظر: عبد الحميد محمود طمهاز - ميزات الشريعة الإسلامية - ط ١ - دمشق: دار القلم ،

١٤١١هـ - ١٩٩١م ، ص ٧٥-٧٩ .

(٤) رواه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب (الحدود)، باب (قطع السارق الشريف وغيره والنهي عن الشفاعة في الحدود)، ج ١١ / ص ١٨٦ .

وقد أباح بعض الفقهاء أن يُقتل المسلم بالكتابي الذمي، وأن يُقتل بالمستأمن لفرض هيبة الدولة، وللأحناف دراسة مفصلة في هذا الأمر اعتمدوا فيها على ظواهر القرآن الكريم وبعض وقائع السنة العملية^(١).

ومن التطبيقات العملية كذلك: "أن المسلم - في مجال الحدود - إذا سرق أو زنى أو قطع الطريق على غير المسلمين جرى عليه من العقوبة ما يجري على فعلته مع المسلمين، ولم يرد في شروط إيجاب تطبيق الحد على السارق أو الزاني أو قاطع الطريق أن يكون المسروق منه أو المزني بها أو المقطوع عليه الطريق مسلماً، وإنما يؤاخذ المسلم بفعله لشيء من ذلك مع غير المسلمين، ومثل ذلك غير المسلم إذا وقع منه شيء من هذا مع المسلمين"^(٢).

٥ - خاصية وضوح الغايات ونبل الوسائل:

فالشريعة الإسلامية تقوم على عقيدة واضحة، وتخدم غاية واضحة كذلك، وتستند في تحقيق ذلك على دستور أساس تتحرك فيه كافة مؤسساتها، ولهذا الدستور قوانين إدارية وقوانين عامة وقوانين للأحوال الشخصية.

فالعقيدة الواضحة التي تقوم عليها الشريعة الإسلامية هي: توحيد الله سبحانه، والإقرار بأنه الإله الأحد الفرد الصمد الخالق الرازق المحيي المميت السميع البصير، وبأنه أوحى إلى محمد ﷺ هذا القرآن هدى ورحمة للعالمين .. يبين لهم به طريق فلاحهم ونجاحهم في العاجل والآجل، ويحاسبهم على الأخذ به أو تركه، يقول عز وجل: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾^(٣).

(١) د. بكر زكي عوض - المدخل إلى دراسة النظم والثقافة الإسلامية ، ص ١٤٦-١٤٧.

(٢) المرجع السابق ص ١٤٧.

(٣) سورة النحل، الآية: ٨٩.

والغاية الواضحة التي تخدمها الشريعة وتسعى إلى تحقيقها هي أن يُعبد الله وحده لا شريك له، وأن يعيش العباد في هذه الدنيا آمريين بالمعروف مطبقين له، ناهين عن المنكر منتهين عنه؛ ليكونوا بذلك خير أمة أخرجت للناس، كما قال عز وجل: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾^(١).

والدستور الأساس الذي تتحرك في إطاره كافة المؤسسات الإسلامية هو القرآن الكريم وما صح من حديث رسول الله ﷺ.

وأما القانون الإداري الذي تسير الدولة الإسلامية على هديه وتترسم خطاه فهو ذلك القانون الذي يمكن أن نفهم قواعده الأساسية من حكومة نبينا محمد ﷺ ومن حكومات الخلفاء الراشدين من بعده.

وأما قانون الدولة العام وقوانين الأحوال الشخصية الجنائية والمدنية وغيرها من القوانين والنظم التي تتطلبها حاجة المجتمع ليعيش فيه الناس في أمن وعدالة؛ فإن الشريعة الإسلامية فيها من هذه الأحكام التفصيلية ما يفي بتحقيق هذه الحاجات^(٢).

٦ - خاصية المرونة:

فقد اشتملت الشريعة الإسلامية على أحكام ثابتة قطعية وأخرى متغيرة واسعة، مما حقق للشريعة خاصية المرونة والسعة إلى جانب خاصية الاستقرار والثبوت، وقد كفلت هذه الخاصية (المرونة) صلاح الشريعة لكل زمان ومكان؛ لأنها تلائم كافة متطلبات الحياة ومختلف متغيرات الاجتماع البشري، وقد انقسمت من أجل هذه الملاءمة المستمرة لكافة المتغيرات إلى قسمين:

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

(٢) انظر: د. علي عبد الحليم محمود - الغزو الفكري، ص ٦٧-٦٨.

الأول: قسم ثابت قطعي لا يتأثر ولا يتغير بتغير الظروف والأحوال. ولا باختلاف الزمان والمكان، ويتمثل في الأمور التالية:

١ - الأحكام القطعية الصريحة الواردة في الكتاب السنة الصحيحة، كحرمة الربا والزنا والخمر والميسر وشهادة الزور، وكأنصبه الورثة من مورثهم، وكالحدود - وهي العقوبات المقدرة على جرائم بعينها - كحد السرقة وحد الحراة وحد الزنا، وما إلى ذلك ...

٢ - الضوابط العامة التي لا يجوز لمسلم أن يتجاوزها في تصرفاته وأعماله، كحد عدد الزوجات بأربع، وحد الطلاق بثلاث طلاقات.

٣ - القواعد العامة التي يُعرف بها الحلال من الحرام، مثل: حرمة كل شيء مسكر، وحرمة كل بيع لا يتم فيه تبادل المنفعة بين الجانبين على تراض منهما، ومثل: قوامة الرجال على النساء.

فهذا الجانب من القوانين الإسلامية ثابت راسخ لا تؤثر فيه المتغيرات، ولا اختلاف الزمان والمكان.

والثاني: قسم متغير متطور يخضع للمتطلبات المستجدة في كل زمان ومكان، ويتمثل في الأمور التالية:

١ - تفسير الأحكام من لدن علماء الفقه الإسلامي، بحيث يسوغ هذا التفسير اليوم وربما يسوغ غداً، ما دام التفسير مؤيداً بالقرائن والدلائل، وهو باب اتسع ولا يزال يتسع في مختلف العصور التي مرت على المسلمين.

٢ - القياس: وهو تطبيق حكم شرعي ثبت في قضية ما على قضية أخرى تماثل تلك القضية أو قياسها عليها.

٣ - الاجتهاد: وهو فهم قواعد الشريعة وأصولها العامة فهماً دقيقاً واعياً، ثم تطبيق هذه القواعد والأصول على قضايا جديدة لم يكن لها نظائر في السابق.

٤ - الاستحسان: وهو وضع ضوابط وقوانين جديدة تحقق مصلحة عامة للمسلمين جميعاً أو مصلحة عامة لبعض الأفراد منهم، بحيث لا تتعارض تلك المصلحة مع شيء من قواعد الإسلام وأصوله العامة.

وهذا القسم المتغير المتطور هو الذي يجعل الشريعة الإسلامية مرنة ومتجاوبة مع مصالح المسلمين المتجددة وصالحة لكل زمان ومكان^(١).

فرية فصل الدين عن الحياة:

لقد بدأ الانحراف في دراسة النظم الإسلامية يظهر بشكل بارز في العصر الحديث، سواء في مجال دراسة النظام السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي، وذلك لأسباب عديدة لعل من أبرزها ما يلي:

- ١ - الابتعاد عن المنهج الإلهي الصحيح، وقلة الوازع الديني عند كثير من المسلمين.
 - ٢ - التوقف عن تطبيق الشريعة الإسلامية في كثير من البلاد الإسلامية، ولا سيما التي وقعت في قبضة المحتل الغربي.
 - ٣ - تأثر كثير من أبناء المسلمين بالأفكار والنظريات والفلسفات الغربية التي وفدت إلى العالم الإسلامي من الغرب النصراني.
- ونأخذ على سبيل المثال لا الحصر: الانحراف في دراسة النظام السياسي الإسلامي، فلقد حاول خصوم الإسلام - من المستشرقين وغيرهم - أن يفرسوا في نفوس المسلمين أن الإسلام إنما هو لتربية النفس وتهذيب الروح فقط، وأنه ليس دين حكم ودولة، كما حاولوا أن يزهدوهم في الحكم بشريعته وأن يجهلوهم بحقائقه حتى تسهل عليهم قيادتهم والتحكم بمصيرهم.
- وقد جاء بخدمة هذه الفرية وترويجها في البلاد الإسلامية بعض أبناء

(١) انظر: المرجع السابق ص ٦٩-٧٠.

المسلمين المتأثرين بالآفكار والنظريات الغربية ممن يُسمون بـ (المستغربين)، أمثال: الأستاذ علي عبدالرازق^(١)، الذي ألف سنة ١٣٤٤هـ / ١٩٢٥م كتاباً في الخلافة سماه "الإسلام وأصول الحكم" جرّد فيه الإسلام من سلطة الدولة وأعلن فيه - بكل جرأة - أن الإسلام لا يشترط للحكومة صورة معينة^(٢)، وأن الشريعة الإسلامية روحية محضة لا علاقة لها بالحكم والتتفيذ في أمور الدنيا، وأن الإسلام بريء من تلك الخلافة التي تعارف عليها المسلمون وأنها ليست في شيء من الخطط الدينية، وأن القضاء في الإسلام وظيفية غير شرعية^(٣).

كما ادعى فيه أن نظام الحكم في عهد النبي ﷺ كان موضع إبهام وغموض، وأن جهاده كان في سبيل الملك لا في سبيل الدين وإبلاغ الدعوة إلى العالمين، وأن مهمته كانت محصورة في تبليغ الدين مجرداً عن الحكم والتتفيذ^(٤).

وزعم أن حكومة أبي بكر الصديق وجميع الخلفاء بعده حكومة لا دينية، وأن جميع الخارجين عليه المانعين أداة الزكاة لم يكونوا خارجين على الإسلام، وأن قتالهم لم يكن دينياً بل كان سياسياً للدفاع عن دولة العرب ووحدتهم^(٥).

لكي يخرج من ذلك كله بأن الإسلام دين بحث لا شأن له بشؤون الحكم والسياسة والقضاء والجهاد ونحوها من خصائص الدولة ومهامها، ولذا نراه يقول

(١) علي بن حسن بن أحمد عبدالرازق . ولد بمصر عام ١٣٠٥هـ / ١٨٨٨م . عالم أزهري . تولى منصب القضاء الشرعي بمحكمة المنصورة الابتدائية . سحبت منه شهادة الأزهري وأخرج من زمرة العلماء بسبب تأليفه كتاب (الإسلام وأصول الحكم) . توفي عام ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م . انظر: الزركلي - الأعلام، ج ٤ - ط ٧ - بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٨٦م ، ص ٢٧٦ .

(٢) راجع كتاب (الإسلام وأصول الحكم) - بيروت : مكتبة الحياة ، ص ٨٢-٨٣ .

(٣) راجع المرجع السابق في الصفحات : ٣٧-٤٧ ، ٦٥-٨٦ ، ١٨١-١٨٢ .

(٤) راجع المرجع السابق في الصفحات : ٩٥ وما بعدها ، ص ١١١ وما بعدها ، ص ١٤٧ .

(٥) راجع المرجع السابق ص ١٩١-٢٠١ .

في كتابه المذكور ما نصه: "ولاية الرسول على قومه ولاية روحية منشؤها إيمان القلب ... ، وولاية الحاكم ولاية مادية تعتمد إخضاع الجسم من غير أن يكون لها بالقلوب اتصال. تلك ولاية هداية إلى الله وإرشاد إليه، وهذه ولاية تدبير لمصالح الحياة وعمارة الأرض، تلك للدين وهذه للدنيا، تلك لله وهذه للناس، تلك زعامة دينية وهذه زعامة سياسية، ويا بعد ما بين السياسة والدين"^(١).

تقويم الانحراف:

لقد أدى هذا الانحراف في دراسة النظام السياسي الإسلامي إلى ظهور موجة من الغضب والسخط من قِبَل بعض العلماء والمفكرين المسلمين الغيورين على دينهم، أنتجت مجموعة كبيرة من المؤلفات التي تردُّ على الفكر الشارد عن مبادئ الإسلام، وتُبين حقائق النظم الواردة في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ على الرغم من تعطيل العمل بالكثير منها.

ومن هذه المؤلفات التي برزت في الساحة الفكرية في الرد على الأستاذ علي عبدالرازق: كتاب (حقيقة الإسلام وأصول الحكم) للشيخ محمد بخيت المطيعي، وكتاب (نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم) للشيخ محمد الخضر حسين، والجزء الرابع من كتاب (موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين) للشيخ مصطفى صبري، وكتاب (الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي) للدكتور محمد البهي، وكتاب (النظريات السياسية الإسلامية) وكذا كتاب (الإسلام والخلافة في العصر الحديث) وهما للدكتور محمد ضياء الدين الرئيس، وكتاب (النظام السياسي في الإسلام) للدكتور محمد عبدالقادر أبو فارس.

كما ظهرت دراسات تبحث في النظم عموماً وفي نشأتها ومنهجها وأسسها

(١) المرجع السابق ص ١٤١.

ومصادرهما، مثل: كتاب (النظم الإسلامية) للدكتورين حسن إبراهيم وعلي إبراهيم، وكتاب (النظم الإسلامية نشأتها وتطورها) للدكتور صبحي الصالح، وكتاب (مصنفة النظم الإسلامية) للدكتور مصطفى كمال وصفي.

كما ظهرت دراسات أخرى تبين تفوق النظم الإسلامية عند مقارنتها بالنظم الوضعية، مثل: كتاب (الحكومة الإسلامية) لأبي الأعلى المودودي، وكتاب (نظم الحكم والإدارة في الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية)، وكتاب (الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام)، وكتاب (المدخل للعلوم القانونية والفقه الإسلامي - مقارنات بين الشريعة والقانون) وهي للمستشار علي علي منصور^(١).

الخلاصة

توصلت في هذا البحث إلى نتائج مهمة، أوجزها في الآتي:

- ١ - أن كلمة (النظم) تطلق في اللغة على الشيء الذي يُراعى فيه الترتيب والانسجام والارتباط، وتطلق في الاصطلاح على التشريعات التي تُنظم حياة المجتمعات الإنسانية.
- ٢ - أن الإسلام ليس نظاماً دينياً يؤثر خلقياً فحسب، بل هو دين سماوي يشتمل على النظم التي توجه المجتمع في كل شؤون حياته، وهذه النظم متعددة مترابطة متداخلة كترابط الإنسان وتداخله في كيان واحد.
- ٣ - أن أبرز هذه النظم يتمثل في: النظام العقدي، ونظام العبادة، والنظام الاجتماعي، والنظام الخلقي، والنظام المالي أو الاقتصادي، والنظام السياسي، ونظام العلاقات الدولية.

(١) انظر: د. محمد رأفت سعيد . المدخل لدراسة النظم الإسلامية ، ص ١٢-١٣ .

٤ - أن الباحثين والعلماء المسلمين عُنوا قديماً بالنظم الإسلامية، واهتموا كثيراً بدراساتها، وقد تمثل ذلك في المؤلفات الكثيرة التي أنتجوها في مسائل تلك النظم.

٥ - أن النظام في الكون والحياة ضرورة لا يمكن أن تستقيم الحياة بدونها، وأن الناس بحاجة ماسة إلى النظم أفراداً ومجتمعات، لحسم الخلافات وحفظ الحقوق وصيانة الحرمات.

٦ - أن العقل البشري المجرد عن هداية الوحي الإلهي لا يستطيع أن يضع نظاماً محكمة تحقق الغايات الطيبة للمجتمعات البشرية وتصلح للتطبيق في كل زمان ومكان، لوجود العديد من أوجه النقص والقصور في تنظيمه، والتي من أبرزها:

- القصور الزماني.
- والقصور المكاني.
- والميل إلى طرف من الأطراف.
- والجهل بحقيقة الإنسان.

ولذا فإنه لا بد لتطبيق أي تنظيم بشري لا يهتدي بهدي الوحي الإلهي من آثار سيئة على الفرد والمجتمع.

٧ - أن شريعة الإسلام المستمدة من الوحي الإلهي كاملة لا يعثر عليها نقص، وشاملة لا يلحقها قصور؛ لأنها من عند الله سبحانه.

٨ - وأن هذه الشريعة تتميز بخصائص ومزايا عديدة، من أبرزها:

أ - الإحاطة والشمول.

ب - التكامل والترابط.

ج - الواقعية وسهولة التطبيق.

د - العدل والمساواة.

هـ - وضوح الغايات ونبل الوسائل.

و - المرونة.

٩ - أن الانحراف في دراسة النظم الإسلامية بدأ يظهر بشكل بارز في العصر الحديث.

١٠ - أن الدين مرتبط بالدولة في الإسلام ارتباط القاعدة بالبناء؛ فالدين أساس الدولة وموجهها، فلا يمكن تصور دولة إسلامية بلا دين، كما لا يمكن تصور الدين الإسلامي فارغاً من توجيه المجتمع وسياسة الدولة؛ لأنه حينئذ لا يكون إسلاماً.

وأخيراً أسأل الله عز وجل التوفيق والسداد، إنه ولي ذلك والقادر عليه،
وصلّى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.
وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

قائمة المصادر والمراجع

- ١ - القرآن الكريم.
- ٢ - الاجتماع الثقافي . د. جلال مدبولي - ط ١ - القاهرة - مصر : دار الثقافة للطباعة والنشر ، ١٩٧٩ م .
- ٣ - الإسلام وأصول الحكم . علي بن حسن بن أحمد عبدالرازق - بيروت : دار مكتبة الحياة .
- ٤ - الإسلام وحاجة الإنسانية إليه . د. محمد يوسف موسى - ط ٤ - الكويت : مكتبة الفلاح ، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .
- ٥ - الأعلام . خير الدين الزركلي - ط ٧ - بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٨٦ م .
- ٦ - الإنسان ذلك المجهول . ألكسيس كاريل ، تعريب: شفيق أسعد فريد - ط ٢ - بيروت - لبنان : مؤسسة المعارف ، ١٩٨٠ م .
- ٧ - تنظيم الإسلام للمجتمع . محمد أبو زهرة - القاهرة : دار الفكر العربي ، ١٩٧٥ م .
- ٨ - جواهر الأدب في أبيات وإنشاء لغة العرب . السيد أحمد الهاشمي - بيروت - لبنان : مؤسسة المعارف .
- ٩ - الحاجة إلى الرسل في هداية البشرية . محاضرة ألقاها الشيخ/ مناع خليل القطان على طلاب الدراسات العليا بكلية الشريعة بالرياض في العام الجامعي ١٤٠٣ - ١٤٠٤ هـ .
- ١٠ - دراسات في فلسفة الأخلاق . د. محمد عبدالستار نصار - ط ١ - الكويت : دار القلم ، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .

- ١١- صحيح مسلم بن الحجاج القشيري بشرح يحيى بن شرف النووي - القاهرة - مصر : دار الريان .
- ١٢- الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام . د. علي عبدالحليم محمود ، ط عام ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م - الرياض : إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .
- ١٣- فتح الكبير المتعال إعراب المعلقات العشر الطوال (معلقة زهير بن أبي سلمى) . محمد علي الدرة - ط ١ - حمص - سوريا : دار الإرشاد ، ١٩٨٦م .
- ١٤- قاموس علم الاجتماع . د. محمد عاطف غيث - القاهرة - مصر : الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- ١٥- القاموس المحيط . مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي - بيروت - لبنان : دار الكتب العلمية ، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م .
- ١٦- كتاب الأخلاق : أحمد أمين - ط ٣ - بيروت - لبنان : دار الكتاب العربي ، ١٩٢٥م .
- ١٧- لسان العرب . أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور - مصر : دار المعارف .
- ١٨- مبادئ الفلسفة . أ. س. رايويرت ؛ تعريب: أحمد أمين - بيروت - لبنان : دار الكتاب العربي ، ١٩٦٩م .
- ١٩- مختار الأغاني . أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور - ط ١ - بيروت - لبنان : المكتب الإسلامي ، ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م .
- ٢٠- المدخل إلى دراسة النظم والثقافة الإسلامية . د. بكر زكي عوض - الإسكندرية - مصر : مطابع القدس .

- ٢١- المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية . د. عبد الكريم زيدان - ط ١١٠ - بيروت - لبنان : مؤسسة الرسالة ، ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م .
- ٢٢- المدخل لدراسة النظم الإسلامية . د. محمد رأفت سعيد - ط ١٠ - جدة : دار العلم للطباعة والنشر ، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م .
- ٢٣- المسألة الاجتماعية بين الإسلام والنظم البشرية . عمر عودة الخطيب - ط ٣٠ - بيروت - لبنان : مؤسسة الرسالة ، ١٩٧٩ م .
- ٢٤- المعجم الفلسفي . د. عبد المنعم الحفني - ط ١٠ - القاهرة : الدار الشرقية ، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م .
- ٢٥- المعجم الفلسفي . جميل صليبا - ط ١٠ - بيروت - لبنان : دار الكتاب اللبناني ، ١٩٧٣ م .
- ٢٦- معجم مقاييس اللغة . أبو الحسين أحمد بن فارس ؛ تحقيق عبدالسلام هارون - ط ١ ، ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م .
- ٢٧- مفاهيم العلوم الاجتماعية والنفس والأخلاق في ضوء الإسلام . أنور الجندي - ط ١٠ - القاهرة - مصر : دار الاعتصام ، ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م .
- ٢٨- المقدمة . عبدالرحمن بن محمد بن خلدون - ط ٣٠ - بيروت - لبنان : دار الكتاب اللبناني ، ١٩٦٧ م .
- ٢٩- مقدمة في دراسة الفقه الإسلامي . محمد الدسوقي وأمينه الجابر - ط ١٠ - الدوحة - قطر : دار الثقافة ، ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م .
- ٣٠- من أصول الفكر السياسي الإسلامي . د. محمد فتحي عثمان - ط ١٠ - بيروت - لبنان : مؤسسة الرسالة ، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م .

- ٣١- المنهج السلفي: (تعريفه ، تاريخه ، مجالاته ، قواعده ، خصائصه). د. مفرح بن سليمان القوسي ٠ ط ١ - الرياض : دار الفضيلة ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م .
- ٣٢- الموسوعة العربية الميسرة : إشراف: محمد شفيق غربال ٠ - بيروت - لبنان : دار نضهة لبنان ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .
- ٣٣- ميزات الشريعة الإسلامية. عبد الحميد محمود طهماز ٠ - ط ١ - دمشق : دار القلم ، ١٤١١هـ - ١٩٩١م .
- ٣٤- نظام الإسلام العقيدة والعبادة. محمد المبارك ٠ - بيروت - لبنان : المكتبة الشعبية ، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م .
- ٣٥- نظرات في الثقافة الإسلامية. عز الدين الخطيب التميمي وآخرين ٠ - ط ١ - عمان - الأردن : دار الفرقان ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .
- ٣٦- وجوب تطبيق الشريعة الإسلامية . وحيد الدين خان ٠ - الرياض : إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .